

## "صدام الحضارات" من منظور علم النزاع والسلام

عباس عروة

مركز دراسات النزاع والسلام - مؤسسة قرطبة بجينيف

مداخلة في المنتدى الفكري الأول لمركز الجزيرة للدراسات

حول موضوع "الإسلام والغرب: من أجل عالم أفضل"

الدوحة 26-28 مايو 2006

دخلت أطروحة "صدام الحضارات" حقل التجاذب الفكري على الصعيد الدولي منذ أن روّج لها السموأل هانتينجتون في مقالة (1) نُشرت في 1993 أثارت ضجة كبيرة، أتبعها في سنة 1996 بعرض أكثر تفصيلا في كتابه "صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي" (2). ثم عادت هذه الأطروحة إلى الساحة الفكرية والسياسية والإعلامية عقب أحداث 11 سبتمبر 2001.

ويمكن تلخيص هذه الأطروحة المثيرة للجدل في القول بأنّه بانتهاء الحرب الباردة فإنّ أهم ما يميّز الشعوب ليس الأيديولوجية أو السياسة أو الاقتصاد، ولكن الثقافة، وفي التنبؤ بأنّ النزاعات على الصعيد الدولي ستكون بين أمم وجماعات تنتمي إلى حضارات متغايرة، و أنّ هذه النزاعات ستكون أشدّ وتيرة وأطول أمدا وأكثر عنفا من النزاعات بين جماعات تنتمي إلى نفس الحضارة. وقد قسّم هانتينجتون الإنسانية إلى تسع حضارات رئيسية وهي: الغربية والأرثوذكسية والأمريكية-اللاتينية والإفريقية والإسلامية والهندوسية والكونفوشيوسية والبوذية واليابانية.

واستنتج هانتينجتون أنّ الحدود بين الحضارات ستمثل خطوط التماس في معارك المستقبل، وأنّه على المدى القريب سيكون التركيز على النزاع بين الغرب وعدة دول تنتمي إلى الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية، وخاصة الحضارة الإسلامية التي تفصلها عن الحضارات الأخرى "حدود دموية". كما رتبّ هانتينجتون بناء على أطروحته حزمة من التوصيات لحفظ مصالح الغرب منها: (أ) ترقية تعاون أكبر وتعزيز الوحدة داخل الحضارة الغربية، خاصة بين شقيها الأوروبي والأمريكي؛ (ب) الحد من توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية والكونفوشيوسية؛ (ج) استغلال الفروق والنزاعات ضمن الدول الإسلامية والكونفوشيوسية؛ (د) دعم الجماعات التي تتعاطف مع قيم الغرب ومصالحه بداخل الحضارات الأخرى؛ (هـ) تعزيز الهيئات الدولية التي تعكس وتضفي شرعية على مصالح الغرب وقيمه.

وإن كانت هذه الأطروحة قد لقيت دعما من بعض المفكرين الغربيين فقد عارضها الكثير من الباحثين من منطلقات نظرية مختلفة، فالبعض انتقد نظرة هانتينجتون للحضارة وتصوره لعلاقة هذه الأخيرة بالثقافة (3)، والبعض الآخر شكك في تصنيفه للحضارات واعتبارها كيانات جامدة لا حركية بداخلها ولا تتفاعل بينها. ومنهم من ركز على الخلفية السياسية لهذه الأطروحة معتبرين إياها أداة لإعادة صياغة السياسة الخارجية للولايات المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، كما أشار إلى ذلك المفكر الفقيه إدوارد سعيد الذي ردّ عن أطروحة "صدام الحضارات" بأطروحة مضادة في مقالة تحت عنوان "صدام الجهالات" ختمها بالقول أنّ "نظرية صدام الحضارات حالها كحال فيلم الخيال العلمي 'حرب العوالم'، أكثر فعالية في تقوية الغطرسة الدفاعية من أن تفضي إلى فهم نقدي للارتباط المذهل لعصرنا" (4).

غير أنّ المعارضة الأشدّ وقعا لأطروحة "صدام الحضارات" جاءت على المستوى التجريبي حيث انتقدها العديد من الباحثين كونها تعتمد على "أدلة من قبيل النوادر" ولا تستند على أساس تجريبي صلب، فالباحث المغربي محمد براو مثلا يرى أنّ "النماذج الواردة في الأطروحة إما أنها منتفاة بشكل تعسفي (جزئية) أو أنها غير دقيقة" (5). بل بالعكس فإنّ جلّ الدراسات التجريبية في مجال علم النزاع التي نُشرت حديثا (6-11) والتي تعرضت للنزاعات الدولية في العقود الأخيرة، كشفت عن نتائج تفنّد الأطروحة وأظهرت أنّ وتيرة النزاعات بين الجماعات التي تنتمي إلى حضارات متغايرة لم يرتفع نسبيا عقب انتهاء الحرب الباردة.

في الواقع لا يوجد نزاع واحد بين العالم الإسلامي والعالم الغربي ككتلتين موحدين يمكن رده أساسا إلى العامل الثقافي، ولكن توجد نزاعات متفرقة بين أطراف تنتمي إلى العالم الإسلامي وأطراف أخرى تنتمي إلى العالم الغربي يمكن تفسيرها في إطار التاريخ والجغرافية باللجوء إلى العوامل الأيديولوجية

والسياسية والاقتصادية. ثم إنَّ نظرة المسلمين إلى العالم الغربي تختلف من إقليم إلى آخر ومن شريحة إلى أخرى في نفس المجتمع حسب مستوى التماس ودرجة الاحتكاك مع الحضارة الغربية. كما أنَّ نظرة الغربيين إلى العالم الإسلامي ليست واحدة على اختلاف الدول والشرائح المجتمعية والاتجاهات الأيديولوجية وقدرة الاطلاع على الحضارة الإسلامية. فإذا أخذنا مثلا نظرة الجزائريين إلى فرنسا وبريطانيا ونظرة المصريين إلى هذين البلدين نجد ههما متعاكستين. كما أننا نجد نظرة عموم المسلمين إلى الولايات المتحدة وبريطانيا تختلف تماما عن نظرتهم إلى سويسرا أو السويد. وبالمقابل نجد مثلا نظرة الإغريق أو الألمان إلى الأتراك تختلف عن نظرة البريطانيين أو الكنديين إليهم.

يعرّف أهل الاختصاص النزاع على أنه علاقة بين طرفين أو أكثر (أشخاصا كانوا أم جماعات) لهم (أو يظنون أن لهم) أهداف متضاربة. وقد تكون هذه الأهداف على مستوى المواقف أو المصالح أو الحاجيات أو القيم. وخلافا لما هو متداول في العالم العربي والإسلامي فالنزاع ليس بالضرورة وأيا كان شكله أمرا مذموما، فالاختلاف والتخاصم والتدافع بين الأشخاص والجماعات والدول ظاهرة بشرية وسنة ربانية لا فائدة من إنكارها، وهي تساهم في تحقيق التوازن بين المصالح وتحول دون الطغيان وهضم الحقوق، وتحفز على الإبداع من أجل تحسين أوضاع البشر بشكل عام. ويُعرّف فقهاء علم النزاع أنّ حالة السلم لا تكمن في غياب النزاعات ولكن في حسن التعامل معها، فالذي يجب تفاديه هو أن يتحوّل النزاع إلى صدام عنيف قد يصل إلى درجة الصراع الدموي. ويُعرّف العنف بأنه أيّ عمل أو لفظ أو اتجاه سلوكي أو بنية أو نظام يُلحق ضررا جسديا أو نفسيا أو اجتماعيا أو محيطيا بالأشخاص و/أو يعيقهم عن تحقيق كامل إمكاناتهم البشرية.

يمكن بسهولة تحليل النزاعات بين العالم الإسلامي والعالم الغربي التي يجري تصنيفها في خانة "صدام الحضارات" انطلاقا من ثلاثة عناصر أساسية تتفاعل مع بعضها البعض (12): أ) السياق أو البنية أو التناقض؛ ويتمثل ذلك في المؤسسات والآليات والظروف التي تؤثر على توزيع وتلبية الضرورات الأساسية للحياة، ومثل ذلك: التسلط والإقصاء والتمييز وانعدام العدالة وهضم الحقوق وسلب الحريات والفساد وعدم المساواة، الخ؛ ب) الاتجاه السلوكي؛ وهو الميل الداخلي - في الإدراك والفكر والعاطفة والإرادة - الذي يحرك الإنسان ويكيّف رؤيته لنفسه وتصوره لخصمه، ومثل ذلك: الكراهية والاستكبار والعنصرية والحقد والغضب والخوف والغلو والجهل والاعتراب، الخ؛ ج) السلوك؛ ويشمل الأفعال وردود الأفعال والأنشطة والعمليات إزاء الخصم، ومثل ذلك: القتل والقمع والتعذيب والاعتصاب والخطف والتهديد والتظليل والتظاهر والتخريب والهدم، الخ.

وبناء على ما سبق، فبعد الدراسة المعمقة والخاصة لنزاع معيّن بين طرف إسلامي وطرف غربي والتحليل الدقيق لبنيته وديناميكيته وتحديد سياقه ومسبباته الظاهرة والباطنة، تمرّ عملية فضّه بثلاث مراحل: أ) الصلح؛ وهو إنهاء السلوك العنيف؛ ب) حلّ النزاع؛ وهو معالجة أسباب النزاع البنيوية؛ ج) المصالحة؛ وهي معالجة آثار النزاع النفسية وتُعتبر شرطا ضروريا لاستقرار السلم.

من البديهي عند انتشار أعمال العنف الظاهر أن يكون الصلح هو الهدف المستعجل، فالأولوية حينئذ لوقف الأعمال التي تلتف الحرق والنسل. لكن إذا توقفت عملية فض النزاع في الصلح فإن السلم المترتب عن ذلك يكون "سلما سلبيا" لا يضمن استقراره، بل حتما سيعاود النزاع النشوب لاحقا إن عاجلا أو آجلا. ولا يمكن التوصل إلى "سلم إيجابي" إلا بعد إزالة مظاهر العنف الباطن عبر حل النزاع والمصالحة. ولعل عملية الصلح - مع صعوبتها - هي أسرع الخطوات في فض النزاع، فعملية حلّ النزاع التي تتطلب إزالة كافة العوائق الهيكلية لإحلال السلم، وعملية المصالحة التي تطمح إلى مداواة "الجروح الجماعية" السطحية والعميقة الذي نجمت عن النزاع العنيف، قد تأخذان وقتا طويلا بعدد بالسنوات، بل بالعقود.

وتتطلب عملية المصالحة اللجوء إلى أدوات متعارف عليها منها: أ) لجنة الحقيقة، ب) المحاكمة، ج) الإصلاح، د) الاعتذار العلني ه) العفو، و) إحياء الذاكرة، ي) التربية والتعليم. كما تستوجب المصالحة أيضا معالجة "الجروح الجماعية" القديمة التي أهملت فلم تندمل. وإذا اعتبرنا مثلا أنّ الأحداث القريبة المتعلقة بـ"11 سبتمبر" في الولايات المتحدة و"11 مارس" في إسبانيا و"7 يوليو" في بريطانيا وقصف أفغانستان وتدمير العراق ومجازر فلسطين و"جوانتانامو" و"بغرام" و"أبو غريب" وصور الكاريكاتير الدانمركية قد أنتجت "جروحا جماعية" عميقة لدى الشعوب الغربية والإسلامية، فإنّ "جروحا جماعية" أخرى قديمة نجمت عن نزاعات تاريخية لا تزال تمثل عقبة في استقرار السلم بين هذه الشعوب ومنها على سبيل المثال ما يخص الحروب الصليبية في الشرق الأوسط ومحاكم التفتيش في الأندلس وغزو العثمانيين لشرق أوروبا ونكبة فلسطين والمجازر الاستدمارية في الجزائر. وفيما يخص المثال الأخير فإنّ "الجروح الجماعية" المتعلقة بالاستدمار الفرنسي في الجزائر لم يتمّ إهمالها فحسب بل عمل البرلمان الفرنسي في 10 فبراير 2005 - أي بعد أكثر من أربعة عقود من استقلال الجزائر - على "رش الملح"

عليها بإصدار قانون ينص على تمجيد "الدور الإيجابي" للحضور الفرنسي في الجزائر والتنويه به في البرامج المدرسية.

إنّ مساهمة العالم الإسلامي في الحد من التوترات على الصعيد الدولي يمكن أن تكون عبر الإجراءات التالية:

أ) معالجة الكم الهائل من النزاعات التي تنخر جلّ العالم الإسلامي، ذلك الفضاء الذي يشمل أكثر من 1200 مليون نسمة، ويُعدّ من أكثر المناطق في العالم انتشاراً للنزاعات العنيفة بين الدول أو داخلها (بين الجماعات أو بين السلطة والمجتمع المدني). ويتطلب ذلك تكوين خبرات محلية في علم النزاع والسلم وإنشاء مراكز للدراسات والبحث من أجل التعاطي العلمي مع ظاهرة النزاع وطرق تفاديه وفضه وتحويله إلى قوة فاعلة وآلية إيجابية لتطوير المجتمع، بناء على المبادئ والتقنيات الحديثة التي تمّ تطويرها في الغرب، وإسقاطها على المجتمع العربي والإسلامي والأخذ بعين الاعتبار خصائصه التاريخية ومقوماته الثقافية.

ب) معالجة النزاعات بين أطراف من العالم الإسلامي وأطراف أخرى من العالم الغربي على أساس مجموعة من المتطلبات الأخلاقية أهمها العدل والتجرد في التعاطي مع النزاع والنظر في مشروعية أهداف الطرفين المتناقضة. فإذا كان النزاع بين طرف له أهداف مشروعية وطرف له أهداف غير مشروعية فإنّ حلّ النزاع يمرّ حتماً بتحقيق أهداف الطرف الأول خاصة إذا كانت على صعيد الحاجيات الأساسية التي لا تستقيم الحياة بدونها، ويحق له في ذلك استعمال كافة الوسائل المشروعة ومنها المقاومة، فعند فقهاء علم النزاع والسلم "لا تفاوض في الضرورات الأساسية". أما إذا كانت الأهداف المتضاربة لكلي الطرفين تتضمن قسماً من المشروعية فإنّ حلّ النزاع يستوجب اللجوء إلى الحوار بين الطرفين ويتطلب قدراً من الإبداع الذي يمكن من استكشاف طرق تجاوز أوجه التناقض بين الأهداف. وفي كلتا الحالتين لا بد لعملية فض النزاع من المرور بالمسار الثلاثي (الصلح - حلّ النزاع - المصالحة)، وعندها فقط يمكن الشروع في عملية مجدية للحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وإلا فلن تكون هذه العملية إلا تهريجاً سياسياً وإعلامياً أو ترفاً أكاديمياً بين النخب.

## المراجع

- (1) Samuel P. Huntington. The Clash of Civilizations ? *Foreign Affairs* 72(3):22-49 (1993)
- (2) Samuel P. Huntington. The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order. Simon & Schuster. New York (1996)
- (3) Jack F. Matlock JR. Can Civilizations Clash? *Proceedings of the American Philosophical Society* 143(3):428-439 (1999).
- (4) Edward W. Said. The Clash of Ignorance. *The Nation*, October Issue (2001).
- (5) محمد براو. الإسلام والغرب: صدام أم حوار؟ نقد نموذج صراع الحضارات. مارس 2002. المصدر: [www.islamonline.net/Arabic/politics/2002/03/article16.shtml](http://www.islamonline.net/Arabic/politics/2002/03/article16.shtml)
- (6) Erik Gartzke and Kristian Skrede Gleditsch. Identity and Conflict: Ties that Bind and Differences that Divide. *European Journal of International Relations* 12(1):53-87 (2006).
- (7) Andrej Tuscisny. Civilizational Conflicts: More Frequent, Longer, and Bloodier? *Journal of Peace Research* 41(4):485-498 (2004).
- (8) Giacomo Chiozza. Is There a Clash of Civilizations? Evidence from Patterns of International Conflict Involvement, 1946-97. *Journal of Peace Research* 39(6):711-734 (2002).
- (9) E. A. Henderson and R. Tucker. Clear and Present Strangers: The Clash of Civilizations and International Conflict. *International Studies Quarterly* 45(2):317-338 (2001).
- (10) Jonathan Fox. Two Civilizations and Ethnic Conflict: Islam and the West. *Journal of Peace Research* 38(4):459-472 (2001).
- (11) Bruce M. Russett, John R. Oneal and Michaelene Cox. Clash of Civilizations, or Realism and Liberalism Déjà Vu? Some Evidence. *Journal of Peace Research* 37(5):583-608 (2000).
- (12) Johan Galtung. Cultural Violence. *Journal of Peace Research* 27(3): 291-305 (1990).